فهم القرآن الكريم بين الواقع التراثي والطموح المعاصر
المنطلقات المعرفية للتجديد في علم التفسير

الدكتورة حنان خياطي
جامعة شعيب الدكالي، الجديدة
المغرب

ملخص البحث:

تعالج هذه الورقة المنطلقات المعرفية للتجديد في التفسير، من خلال تحليل مفهوم التجديد في التفسير واستجلاء أهميته في إصلاح واقع الأمة وما يعرفه من اضطراب، وابتعاد عن كتاب الله، وتبيان الصلة الوثقى بين إعادة النظر في المناهج التفسيرية ومدى توافقها مع المتطلبات النفسية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية للأمة والضوابط الضرورية التي تعصم المفسر المجدد من الزيغ عن دائرة القصد الرباني وتضبط المادة التفسيرية فلا تميل بها عن معانيها التي جاء بها القرآن الكريم.

الكلمات المفتاحية: التراث –التجديد –التفسير–المنطلقات المعرفية.

Abstract:

This research deals with the cognitive starting points of renewal in interpretation, by analyzing the concept of renewal in interpretation and clarifying its importance in reforming the reality of the nation and the disorder it knows, moving away from the Book of God, and demonstrating closeness to it. The relationship between reconsidering interpretive approaches and their compatibility with the nation's psychological, social, economic and political requirements. And the necessary controls that protect the innovative interpreter from deviating from the circle of divine intent, and control the interpretive material so that it does not deviate from its meanings given by the Holy Qur'an.

Keywords: heritage – renewal – interpretation – cognitive perspectives

المقدمة:

الاجتهاد في علم التفسير بتفعيل وسائل الاستنباط أمر يدعو إليه تطوير الدراسات القرآنية، لكن لما كان هذا المصطلح ذا حدين فقد دخل في هذا الميدان من جعل من التجديد ميدانا للانفلات من النص الشرعي فأبقوا لفظه وفرغوه من معناه بمناهج وشبه خطيره أبرزها ما اصطلح على تسميته بالقراءة المعاصرة للنص، وكل هذا دعا إلى وضع ضوابط للتجديد بحيث يزداد عمق فهم النص بما يلبي حاجة المسلم للهداية بالقرآن في كافة شؤون الحياة بطريقة معاصرة دون مساس بثوابت الدين وأحكامه.

إشكالية البحث:

الكثير من الإشكاليات تطرح نفسها عند مقاربة هذا الموضوع للبحث فيه، تساؤلات تصب في البحث عن حقيقة التجديد في التفسير منها:

- ما حقيقة التجديد في التفسير؟
- ماهي خصائص التجديد المنهجي في التفسير؟
- ما مدى قدرة تنزيل هذا التفسير على واقع الأمة لإصلاح احوالها وفقا لمنهج القرآن؟

أهمية البحث:

تبرز أهمية الموضوع من خلال النقاط التالية:

- ✓ ارتباط الموضوع بكتاب الله عز وجل
- ✓ تجدد حاجات المجتمعات وبروز أفكار جديدة على الساحة الإنسانية وانفتاح ميادين للنظريات العلمية الحديثة لا يمكن تغطيتها ورؤية الحلول الصحيحة لها إلا باللجوء إلى تفسير القرآن الكريم.
- ✓ قلة البحوث العلمية في هذا الموضوع.

أهداف البحث:

- ✓ الوقوف على حقيقة التجديد في التفسير ومدى الحاجة إليه.
- ✓ تهيئة المناخ العلمي للموضوع المدروس بعمق وشمولية وتبلور قضاياه وتبرز معالمه.

منهج البحث:

سلكت في هذا البحث المنهج الوصفي التحليلي وذلك بالوقوف على معنى التجديد مع التحليل لبيان معالم التجديد في التفسير.

خطة البحث:

اقتضت خطة البحث التطرق إلى معنى التجديد في اللغة والاصطلاح ثم معنى التجديد في التفسير ثم منطلقاته المعرفية من معالم ومقومات وعدة معرفية لتفسير النص القرآني.

المبحث الأول: منطلقات تأسيسية: مفهوم التجديد في التفسير:

المطلب الأول: معنى التجديد في اللغة والاصطلاح:

1-معنى التجديد في اللغة:

أ- التجديد في اللغة:

جاء في معاجم اللغة: أن العرب تقول: تجدد الشيء، يعني صار جديدا، وأجد الشيء واستجده، أي صيره جديدا فتجدد. والجدة: مصدر الجديد وهي نقيض البلى، ويقال: جد الثوب يجد-بالكسر- صار جديدا، وهي نقيض الخلق، وأجد ثوبا واستجده: لبسه جديدا[1].

قال البوصيري في مدح النبي صلى الله عليه وسلم:

آياته كلما طال المدى جدد　　　يزينهن جلال العتق والقدم[2].

وقولنا: تجديد شيء: يفيد وجود أصل صحيح لهذا الشيء حصل عنه تغيير إلى سيء، وتجديده يكون برده إلى أول عهده الذي كان فيه جديدا (كالسيف إذا علاه الصدأ ثم نفضنا عنه الصدأ، فهذا يسمى تجديدا، لأنه يعيد للسيف مضاءه من جديد)[3].

وكتجديد بناء أثري – قصر أو معبد أو مسجد- فهو لا يعني هدمه وبناء آخر مكانه على أحدث طراز، بل إبقاءه والحرص على إرجاعه إلى صورته الأولى ما أمكن ذلك. ومثل ذلك تماما تجديد البيعة، وتجديد العهد،

وتجديد الوضوء وغير ذلك، فتجديد البيعة لحاكم أو لرئيس، لايعني عزل الحاكم أو إقالة الرئيس، فهذا يسمى تغييرا وليس تجديدا، وإنما تجديد البيعة يعني إعلان استمرار الولاء والتأييد للحاكم أو الرئيس الذي كان ولا يزال باقيا في حكمه أو رئاسته، وكذا تجديد العهد والوضوء، فتجديد الوضوء: إعادته وتجديد العهد: إحياؤه وتأكيده. قال الشاعر:

ليشكر بنو العباس نعمى تجددت   فقد وعد الله المزيد على الشكر[4].

مما تقدم يتضح: أن التجديد في اللغة هو إعادة الخلق البالي بعد أن تقادم به العهد وغشيته عوادي الزمن إلى حالته الأولى يوم ظهر لأول مرة، مع المحافظة- كل المحافظة- على جوهره وخصائصه ومعالمه وعدم المساس بها، وهذا ينطبق على الماديات والمعنويات كما في الأمثلة السابق ذكرها.

ب-التجديد في الاصطلاح:

إن التجديد فكرة سار القول فيها منذ عصور مبكرة، وقد جرى ذكرها على الألسنة والأقلام، وأصبح الحديث عن التجديد والمجددين مشهورا ومعروفا، معرفة تدفع الحرج عن كل متكلم فيه اليوم.

والمتتبع لما كتبه علماء الإسلام –قديما وحديثا- عن مفهوم التجديد يجد الآتي:

1- هناك فريق من العلماء يرى أن التجديد: هو إحياء العمل بالدين، وإعادة المحافظة على السنة، وهجر ومحاربة البدعة، قال العلقمي – رحمه الله في شرحه للجامع الصغير:

(معنى "يجدد لها دينها" المذكور في الحديث، هو إحياء ما أندرس من العمل بالكتاب والسنة والأمر بمقتضاها)[5]، فجعل –رحمه الله- عمل المجدد ينصب في تجديد أو إعادة العمل بالدين.

والقائلون بهذا الرأي حين يحتفلون مثلا بأهمية التجديد في الفقه نراهم يرجحون اعتبار مجدد على اعتبار مجدد آخر بأن المفضل فقيه يذود عن الفروع، والمفضول متكلم يذود عن العقائد.

وأجد من مثال ذلك: ما فعله السبكي في طبقات الشافعية، عند عد مجدد المائة الثالثة، وإيثاره أن يكون مجدد هذه المائة هو ابن سريج الفقيه الشافعي، لا أبو الحسن الأشعري المتكلم.

2- وهناك فريق آخر من العلماء يرى أن التجديد هو إحياء العلم بالدين وتجديد الفهم له.

قال القاري في (المرقاة): ("يجدد لها دينها": أي يبين السنة من البدعة، ويكثر العلم وينصر أهله، ويكسر أهل البدعة)[6]، وهذا يفيد أن عمل المجدد ينصب في تجديد العلم بالدين.

ويقول أبو الأعلى المودودي: التجديد: هو (عبارة عن تطهير الإسلام من أدناس الجاهلية وجلاء ديباجته، حتى يشرق كالشمس ليس دونها غمام)[7].

ويقول وحيد الدين خان: (إن تجديد الدين يعني تطهير الدين الإلهي من الغبار الذي يتراكم عليه، وتقديمه في صورته الأصلية الناصعة)[8].

وأجد القائلين بهذا الرأي حين تحديد مجدد لقرن ما، يفضلون مجددا على غيره، لما له من دفاع عن أصول العقائد، لا عن الفروع الفقهية- كما يقول أصحاب الرأي الأول- وذلك كتفضيل ابن عساكر أن يكون مجدد المائة الثالثة نفسها هو أبو الحسن الأشعري، وليس ابن سريج، لقيام الأشعري بنصرة السنة والرد على المعتزلة، وسائر أصناف المبتدعة والمضللة.

ومع هذا الاختلاف بين الرأيين، فإن إيثارهم المنزع العملي في التجديد- كما يقول الشيخ أمين الخولي-تؤيده أشياء كثيرة منها:

أ- إنهم- أي القائلين بكلا الرأيين- يعدون من المجددين خلفاء، ويتفقون جميعا على أن عمر بن عبد العزيز هو المجدد الأول على رأس المائة الأولى، لا ينافسه في ذلك أحد، والخلفاء في عامة أمرهم يكون مجال تجديدهم هو الجانب العملي في إصلاح الحكم، ورعاية أحوال الناس، لأن الأصل في حفظ الدين هو حفظ قانون السياسة، وبث العدل، والتناصف الذي به تحقن الدماء، ويتمكن من إقامة قوانين الشرع.

ب- اعتبارهم منصب تجديد الدين منصبا اجتماعيا عمليا، يشبه منصب الخلافة العامة والإمامة العظمى.

ج- اهتمامهم بالتجديد وبالمجدد إلى حد رفعه إلى مرتبة النبوة، وتسمع مثل هذا التعبير من بعض العلماء الأكابر، فنجد أحدهم يقول: (لو كان بعد النبي صلى الله عليه وسلم نبي لكان الغزالى، وإنه يحصل ثبوت معجزاته ببعض مصنفاته)، ويقول السيوطي في أخر كتاب (التنبئة): (في هذه الأمة في كل مائة سنة يموت الحكماء والعلماء، ثم يبعث الله على عدد الأنبياء حكماء فيردون الخلق إلى الله، وهم بمثابة أنبياء آخر الزمان). واعتبار المجددين أنبياء أو بمثابة الأنبياء اعتبار يؤكد جلال مهمتهم، وأنها إصلاح عام، لا تصحيح نظري لما هو سنة وفقط.

د- إنهم- أي العلماء- حين يعللون التجديد على رؤوس القرون يردونه إلى اعتبار المحن الاجتماعية التي تقتضي التجديد، وأن التجديد واجب عند وجود الآفات الاجتماعية. قولهم: (إن المجددين قد يتعددون في القرن الواحد)، فيكون كل واحد منهم عاملا في ميدان من ميادين الحياة العلمية والعملية، فكل واحد ينفع بغير ما ينفع به الآخر[9].

3- والحق أن التجديد المطلق الكامل هو الذي يشمل العلم والعمل معا، وإلى هذا المعنى ذهب العلامة المناوى في تعريفه للتجديد، حيث قال: "يجدد لها دينها" أي: يجدد ما أندرس من أحكام الشريعة، وما ذهب من معالم السنن، وما خفي من العلوم الظاهرة والباطنة)[10]، وهذا التعريف الجامع للتجديد قال به عامة العلماء، وقادة الفكر الإسلامي في العصر الحديث، وهذه بعض تعريفاتهم:

يقول العلامة المودودي: (التجديد في حقيقته هو تنقية الإسلام من كل جزء من أجزاء الجاهلية، ثم العمل في إحيائه خالصا محضا على قدر الإمكان)[11].

ويقول الدكتور حسن الترابي: (التجديد إحياء لمعاني الدين الحق في النفوس، ثم إقبال على واقع التدين لترقية الالتزام بأحكام العمل المقررة شرعا، ولمكافحة ما طرأ على التدين من بدع غشيت الدين، من ممارسات سالفة خاطئة ليست منه شيء، أو أشكال تعبير عفوية لا بسته لعهد سبق ولم تعد مناسبة، ثم جهاد لتحقيق الدين في ثوبه المتجدد)[12] .

ويقول الدكتور أحمد الشرباصي في كتابه عن أبي حامد الغزالي، تحت عنوان (مجدد القرن الخامس): (المجدد لدين الله يبعث في الأمة المؤمنة بهذا الدين روحا جديدة، تستيقظ بها من سباتها، وتقوى بها من ضعفها، وتعز بعد ذلها، فتعيد سيرة سلفها الصالح، من التزام الصراط المستقيم، والاحتكام إلى دين الله –عز وجل- وجعله رائدا في الحياة، يسدد خطاها، ويحفظ على الأمة هداها، ويحسن لها الجمع بين الدين الحق والحياة السعيدة)[13].

وبذلك نستطيع أن نقول: إن التجديد ليس جهدا وعملا فكريا فحسب، كما هو مفهوم الكثيرين عندما يذكرون التجديد ويتحدثون عنه، فلا يكاد يدور بخلدهم إلا تجديد الاجتهاد، وإيقاظ العقل المسلم لمواجهة تطورات الحياة.

ولا ريب في أن تجديد الفكر وإحياء الاجتهاد، وتصحيح الفهم، يأتي في طليعة التجديد المنشود، فإن العلم يسبق العمل، والفكرة تسبق الحركة، ولكن الإنسان ليس عقلا فقط، بل هو عقل وقلب، وجسم وروح، فلابد للتجديد أن يشمل كيان الإنسان كله.

المطلب الثاني: معنى التفسير في اللغة والاصطلاح:

1-معنى التفسير في اللغة:

إن معنى التفسير في اللغة يدل على الإظهار والبيان والكشف وقد اختلف اللغويون فيما إذا كان مأخوذا من "الفسر" أو من "السفر"، فمنهم من قال إن الجذر هو "الفسر «بمعنى الإبانة والكشف، فسر الشيء يفسره فسرا، أي: أبانه وكشف عنه. ومنهم من يراه أنه مقلوب الجذر عن "السفر «فيقول سفرت المرأة سفورا، إذا ألقت خمارها عن وجهها فهي سافرة تقول أسفر الصبح إذا أضاء، وبرغم الاختلافات بين الاتجاهين، فإن المعاني اللغوية للتفسير لا تخرج عن كونها تعني كشف المغلق والبيان والإظهار.

2-معنى التفسير في الاصطلاح:

لقد تعددت التعريفات التي قدمها العلماء المسلمون لمعنى التفسير في الاصطلاح ونذكر منها:

"التفسير علم يفهم به كتاب الله المنزل على نبيه صلى الله عليه وسلم وبيان معانيه واستخراج أحكامه وحكمه واستمداد ذلك من علم اللغة، والنحو والتصريف وعلم البيان وأصول الفقه والقراءات ويحتاج لمعرفة أسباب النزول والناسخ والمنسوخ"[14]

وعرفه ابن جُزي قال: «معنى التفسير شرح القرآن، وبيان معناه، والإفصاح بما يقتضيه بنصه أو إشارته او فحواه".[15]

وقال أبو حيان الأندلسي: «التفسير علم يبحث عن كيفية النطق بألفاظ القرآن ومدلولاتها وأحكامها الإفرادية والتركيبية ومعانيها التي تحمل عليها حال التركيب وتتمات ذلك "[16]

وعرفه الزرقاني بقوله:" التفسير في الاصطلاح علم يبحث فيه عن القرآن الكريم من حيث دلالته على مراد الله تعالى، بقدر الطاقة البشرية ".[17]

ويلاحظ من التعاريف السابقة أنها تلتقي جميعها في كون المراد من التفسير هو بيان مقصد القرآن الكريم، والوقوف على دلالته ومعناه، وإن كانت بعض التعاريف رامت بعض متعلقات التفسير ولوازمه.

وفي هذا الصدد يقول الشيخ محمد حسين الذهبي: "لم يترك الأوائل للأواخر كبير جهد في تفسير كتاب الله والشف عن معانيه ومراميه ...إذ أنهم نظروا إلى القرآن باعتباره دستورهم الذي جمع بين سعادة الدنيا والآخرة ...والذي يقرأ كتب التفسير على اختلاف ألوانها لا يدخله شك في أن ما يتعلق بالتفسير من الدراسات المختلفة ،قد وفاه هؤلاء المفسرون الأقدمون حقه من البحث والتحقيق ،فالناحية اللغوية والناحية البلاغية والناحية المذهبية والناحية الكونية ،كل هذه النواحي وغيرها تناولها المفسرون الأوائل بتوسع ظاهر ملموس لم يترك لمن جاء بعدهم – إلى ما قبل عصرنا بقليل –من عمل جديد أو أثر مبتكر يقومون به في تفاسيرهم التي ألفوها ،اللهم إلا عملا ضئيلا لا يعدو أن يكون جمعا لأقوال المتقدمين أو شرحا لغامضها أو نقدا وتفنيدا لما يعتوره الضعف منها أو ترجيحا لرأي على رأي ،مما جعل التفسير يقف وقفة طويلة مليئة بالركود خالية من التجديد والابتكار "[18]

المطلب الثالث: معنى التجديد في التفسير:

نجد أن المنطلق التنظيري كان مع مقولة الإمام محمد عبده[19] بأن القرآن "كتابة هداية" هي مقولة فتحت طريقا جديدة للعلاقة بالنص القرآني نومنها بدأت تتحدد للتفسير غاية مختلفة عما أرساه المفسرون التقليديون

ولعل أفضل من صاغ معنى التجديد في التفسير هو السيد قطب، حين كتب في مقدمة تفسيره، في "ضلال القرآن "يدين مقولة المفسرين التقليدية التي قصرت التفسير على مجال الفهم وبيان المراد باعتبار جملة من المعارف من أبرزها علوم اللغة [20].

بالنسبة إلى صاحب الضلال فإن الغاية من أي عمل تفسيري هي تمكّن من رؤية للعالم والوجود، هي رؤية كونية "تبين غاية الوجود كله وغاية الوجود الإنساني وهو التوصل إلى حياة ترفع العمر وتباركه وتزكيه..."أنه الإحساس بالتناسق الجميل بين حركة الإنسان كما يريدها الله وحركة الكون الذي أبدعها الله".[21] وهو هنا يتجاوز مقولة الزركشي الذي عرف علم التفسير بأنه "علم يفهم به كتاب الله المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم وبيان معانيه واستخراج أحكامه وحكمه واستمداد ذلك من علم اللغة والنحو والتصريف وعلم البيان وأصول الفقه والقراءات ومعرفة أسباب النزول والناسخ والمنسوخ"[22]

لنقف على مفهوم جديد لعلم التفسير، وهو الذي يتيح لكل فرد تفسيرا للكون والعالم المحيط قصد تحقيق تفاعل أشمل مع مكوناته. ومن هنا يبرز الفرق الجوهري بين من يرى أن القرآن كتاب حاو لسور مفصلة تتضمن عبادات ومعاملات، وبين من يرى فيه بالأخص سجلا إلهيا مفتوحا على التجربة الوجودية الكونية.

تمتاز الرؤية الاولى بطابعها الثبوتي الذي لا يولي كبير عناية لما يعنيه القرآن من فيض ما له من نفاذ، وأنه مصدر الحكمة الشاملة والعطاءات الموصولة وأنه دفق الحياة الذي يرفع العمر ويباركه ويضيئه إنها رؤية لطبيعة القرآن تجعل المؤمن القارئ لا يمكن أن يكون إلا تجديديا، أي معبرا عن حاجيات الامة وتساؤلاتها المتجددة مستنيرا بفهم القرآن في كليته ونظريته المجسدة لحقيقة الرسالة المحمدية في لحظة تاريخية محددة.

من هذا المنطلق اتجهت علاقة المفسر الحديث بالوحي على فهم آخر لطبيعة القرآن، تحول دون الحجر على دلالات النص بالفهم الواحد، هي طبيعة تبعث عبر التزكية الإلهية للإنسان، أي أنها تصل قدسية النص القرآني – في جانب منها –بالإنسان وأفقه وثقافته، إذ يتعين المعنى بما يتحقق من الجدل مع طاقات الإنسان ومع فاعلية واقعه الفكري والاجتماعي.

وهذا ما يحيلنا إلى سؤال منهجي، يمكن أن يصاغ كالتالي: هل غاية مفسر القرآن الكريم اليوم هي الحفاظ على التراث التفسيري الضامن ل "وحدة الأمة" المتحققة من خلال قدسية مرجعيتها؟ أم ان المقصود فهم النص المقدس فهما يستوعب التراث التفسيري ويتجاوزه مستفيدا من مجالات المعرفة الإنسانية المختلفة، على معنى أن القدسية تستلزم الإقرار بتعذّر التوصّل إلى فهم نهائي لنص الوحي؟

ذلك أن ما انتهت إليه المدونة التفسيرية من سعي إلى إبانة كلام الله والكشف عن مراميه كانت قائمة على نظام فكري ونسق ثقافي يمثلان قاعدة التوازن الداخلي لتلك المدونة، بعبارة أخرى، فإن كل التفاسير القديمة، سواء تعلق الأمر بالتفاسير القائمة على الأثر أو الرأي أو ما سمي بالتفاسير الفقهية أو الإعتزالية أو الإشارية فإنها–لاعتنائها بفهم النص وإفهامه–لا يمكنها التوصّل إلى مدلولات القرآن إلاّ بعدّة معرفية صيغت في بناء فكري كلامي وظيفته إقناعية وخصوصيّته دفاعيّة ،وبناء على رؤية مثاليّة تتصوّر الحقيقة خارج التاريخ والعالم.

جماع هذا يجسد الأزمة التي عالجها المفسرون المحدثون في بعدها المنهجي هي معالجة تتمثل في سؤال عن طبيعة القرآن وعن غاية المفسر له: هل حقيقة التفسير تنفي كل صلة بين المعنى المراد ووعي الإنسان وثقافته أم أنها تفترض مواكبة تطوّر الإنسان ونموّ فكره وفاعلية واقعه الاجتماعي والثقافي؟

من هنا خط المسار الحديث لعلم التفسير طريقه الذي استفاده من مقولة محمد عبده الإصلاحية ومن قراءة محمد إقبال التجديدية ليضبط من خلالهما إشكالية المفسر المعاصر.

في كلمة، يُدرك تجديد المفسر بقدر تحرره من المدونة التفسيرية الموروثة، وذلك عبر استيعابها ونقدها ناسجا بذلك قراءة متميزة للنص تستمد تميزها من معرفة أدق بتاريخ نظام الفكر الإسلامي وخاصة في مجال تخصصه ومن استحضارها لقضايا العصر الفكرية والاجتماعية والأخلاقية.

المبحث الثاني: المنطلقات المعرفية للتجديد في علم التفسير:

المطلب الأول: معالم التجديد في التفسير ومقوماته:

تأسست نداءات التجديد على إعادة النظر في مادة التفسير وإعادة الاعتبار إليه بتنقيته من الشوائب وتخليصه من الزوائد من جهة، ورص قواعده من جهة أخرى، مع التركيز على الانضباط لمقتضيات الألفاظ وتحري مقاصد الشريعة والتركيز على الهدائية وغير ذلك مما يؤكد عليه دعاة التجديد في التفسير من حيث المادة. أما من حيث المنهج فإن رؤية المفسرين في العصر الحديث تميزت بالتأكيد، في غالبها، على ضرورة وضع بدائل منهجية كفيلة بإخراج التصور القرآني حتى يكون قابلا لتنزيله على واقع الناس، **حاولنا توضيحها كالآتي:**

1–النظرة الكلية الشاملة:

النص القرآني نص منسجم متكامل ومتناغم، يُكمّل بعضه البعض الآخر، مصداقا لقوله تعالى: "كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ"، وقوله تعالى: "فَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا" وهناك اتفاقًا بين أهل العلم على وحدة النص الشرعي وانسجامه، قال الإمام الشاطبي: "الجميع على أن الشريعة الإسلامية لا اختلاف فيها ولا تناقض".

والقراءة الشاملة الكلية المستوعبة لكل جزئيات النصوص الشرعية، من شأنها أن تُوازن وتُقارن بين النصوص على اختلاف مواردها ونزولها وترجح بين تقابلاتها. وتنتج فهماً راشداً لمراد الله تعالى ومقاصد كلامه، وفهماً كلياً للنص الشرعي. يمكننا من استخلاص كليات الشريعة في قضايا عدة تحتاجها الأمة أشد حاجة في بنائها الحضاري، خاصة وواقع الأمة عرف تغيرات كبيرة، فرضت على أهل العلم الحاملين هم التجديد تحديات الإجابة عن أسئلة العصر الملحة.

هذا المعطى فرض على المفسر أن تكون له نظرة شاملة للقرآن الكريم، من خلال مدارسته للقرآن وحسن تدبره، واستحضار الآيات المتعلقة بموضوع واحد، وإلى جانب هذه النظرة الكلية الشاملة للقرآن الكريم بوجه عام، كذلك فعليه أن يتأمل في كلِّ سورة ويتدبر في مقاصدها وأهدافها قبل أن يشرع في تفسيرها، مما يمنحه فكرة شاملة للسورة تعينه على تقسيمها وتحديد ملامحها ومعالمها ومحورها الذي تدور حوله والوقوف على سياق الآيات والقدرة على الاستنباط. يقول الأستاذ الدكتور لطفي الصباغ: "لابد من أن تتوافر لمبتغي التفسير دراسةٌ شاملةٌ مفصلة ونظرة عامة لجوانب هذا الكتاب الكريم، وهذه القاعدة منطلق في فهم أي نصٍّ فهما صحيحا، فلا يجوز أن نطيلَ الوقوفَ أمام جملة من النص، ونستنبط منها أحكاما ونغض بصرنا ونغلق فكرنا عن الجمل الأخرى"[23-24].

وفي هذا المعنى يقول الأستاذ أبو الأعلى المودودي –رحمه الله-: "والذين يرغبون في دراسته على نهجٍ قويم عليهم أن يستوعبوا قراءته في ختمتين لمجرد أن يلمع أمامهم نظامه للعقيدة ومنهجه العام ... كما عليهم أن يحاولوا خلال الدراسة الأولية تحقيق النظرة الإجمالية في مشاهد القرآن عامة"[25].

2–مراعاة مقاصد القرآن الكريم:

حيث أشار بعض المفسرين إلى ضرورة مراعاة مقاصد القرآن وجعلِها زادا ونبراسا: يقول الطاهر ابن عاشور في مقدمة تفسيره: "... فمرادُ اللهِ مِنْ كِتَابِهِ هُوَ بيانُ تَصَارِيفِ مَا يَرْجِعُ إِلَى حِفْظِ مَقَاصِدِ الدينِ وقد أُودِعَ ذلك في ألفاظِ القرآنِ التي خاطَبَنَا بها خِطَابًا بَيِّنًا وَتَعَبَّدَنَا بِمَعْرِفَةِ مُرادِهِ والاطلاعِ ... ثم ذكر –رحمه الله– ثمانية مقاصد رئيسة لنزول القرآن وهي: الأول: إصلاح الاعتقاد وتعليم العقد الصحيح. وهذا أعظم سبب لإصلاح الخلق: والثاني: تهذيب الأخلاق، والثالث: التشريع وهو الأحكام خاصة وعامة ...، والرابع: سياسة الأمة: وهو باب عظيم في القرآن القصد منه صلاح الأمة وحفظ نظامها، والخامس: القصص وأخبار الأمم السالفة للتأسِّي بصالح أحوالهم ...، السادس: التعليم بما يناسب حالة عصر المخاطبين وما يؤهلهم إلى تلقي الشريعة ونشرها وذلك علم الشرائع وعلم الأخبار ...، السابع: المواعظ والإنذار والتحذير والتبشير وهذا يجمع جميع آيات الوعد والوعيد وكذلك المحاجة والمجادلة للمعاندين وهذا باب الترغيب والترهيب، الثامن: الإعجاز بالقرآن ليكون..."[26].

ويقول سيد قطب: "إنما جاء القرآنُ ليكون منهاجَ حياةٍ، منهاجًا إلهيًّا خالصًا ... إن هَدَفَنَا الأولَ: أن نعرفَ: ماذا يريدُ منا القرآنُ أن نعملَ؟ ما هو التصورُ الكليُّ الذي يريدُ منا أن نتصورَ؟ كيف يريدُ القرآنُ أن يكونَ شعورُنَا بالله؟ كيف يريدُ أن تكونَ أخلاقُنا وأوضاعُنا ونظامُنا الواقعيُّ في الحياةِ؟"[27].

مثال ذلك: ما ذكره سعيد حوى –رحمه الله– في مقدمة تفسيره يقول: تحت عنوان (بعض احتياجات عصرِنَا بالنسبةِ للقرآن) جملةٌ من الأهدافِ التي قَصَدَهَا من التفسير. وهذه الأهدافُ هي:

1- الحديثُ عن الوحدةِ الموضوعية للقرآن الكريم حديثا موسَّعًا؛ يعين على فهم القرآن ويبرز جانبا هاما من جوانب إعجاز النظم القرآني، كما يردُّ من خلال ذلك على شبهات أعداء الإسلام حول ترتيب القرآن ووحدته الموضوعية.

2- الإجابةُ على كثير من التساؤلات التي تترددُ في هذا العصرِ، والاستفادةُ مِنَ العُلُوم العصرية، وبيانُ موقفِ القرآنِ منها.

3- الإجابةُ على كثيرٍ مِنَ الشُّبَهِ والاعتراضاتِ التي طَرَحَهَا أعداءُ الإسلام وتولى كِبَرَهَا أتباعُهُم ممن ينتسبون إليه: حولَ إِمْكَانيةِ الحياةِ في ظلالِ القرآنِ، وتطبيقِهِ في شتى مجالاتِ الحياةِ.

4- تكوينُ الشخصيَّةِ المسلمةِ التي تتحققُ بمعاني القرآن، وتترجِمُهُ إلى واقعٍ عمليٍّ، وإذا وُجِدَ الفردُ المسلمُ على هذا الأساسِ فسوف توجَدُ الأُمَّةُ المسلمةُ التي تستحقُّ النصرَ والتمكينَ، وتُؤَدِّي دورَهَا في هذا الوجودِ.

5- هذا إلى جانب ضرورةِ التيسيرِ على القارئِ المسلِمِ، واستخلاصِ الفوائدِ من أمهاتِ كتبِ التفسيرِ لأنَّ المسلمَ المعاصرَ يُعْجِبُهُ أن يأخذَ خلاصَةَ التحقيقِ بأدِلَّتِهِ المباشِرَةِ، أَمَّا التحقيقُ نفسُهُ فَيُمْكِنُ للمتخصِّصِينَ أن يرجِعُوا إِلَيهِ في مواضِعِهِ.

6- عرضُ العقيدةِ الإسلاميةِ عرضًا صحيحًا بعيدًا عن تأويلِ الجاهلينَ وانتحالِ المبطلينَ، وخاليا من المشكلاتِ الكلاميةِ والتعقيدات الفلسفيةِ مع الردِّ على المللِ والنِّحَلِ المخالفةِ للإسلامِ، والردِّ على المذاهبِ المنحرفةِ المخالفةِ لمذهبِ أهلِ السنةِ والجماعةِ ...[28].

3–تنزيل الآيات على الواقع:

ذلك أن القرآنَ الكريمَ يتواكبُ مع كلِّ عصرٍ ويتناسبُ مَعَ كُلِّ جيل فمن سمات المنهج القرآني: الواقعية: من حيث عرضِهِ للعقيدةِ التي يتسلحُ بها المؤمنُ في مواجهةِ واقعِهِ. الواقعية: في كل ما جاء به من تشريعات تناسبُ الواقعَ، وتعالجُ النوازلَ والوقائعَ.

الواقعية: في قصصه وأمثاله التي نستلهمُ منها العبرَ، ونستمدُّ المواعظَ، ونستخلصُ الفوائدَ.

الواقعية: في حِكَمِهِ ووصاياهُ التي تَشْحَذُ الهِمَمَ وتسمُو بالأرواحِ وتُقيمُ الحياةَ وتنهضُ بالمجتمعاتِ. الواقعية: في حديثه عن حقيقةِ الإنسانِ وما يتعلقُ به من حيثُ المبدأُ والمعاشُ والمعادُ، وما أَوْدَعَ اللهُ فيه من غرائزَ وعواطفَ.

حيث يُقَدِّمُ لنا النبي الكريم صلى الله عليه وسلم تفسيرًا واقعيًّا للقرآن الكريم: من خلالِ أقوالِهِ وأفعالِهِ وحِلِّهِ وترْحَالِهِ، وَحَرَكَاتِهِ وَسَكَنَاتِهِ وإيماءَاتِهِ، وأحاسيسِهِ وانفعالاتِهِ، كان خُلُقُهُ القرآنَ في تعاملاته اليوميَّة مع أهلِ بيتِهِ وجيرانِهِ وخِلَّانِهِ، في هديِهِ وفي سُوقِهِ وفي طريقِهِ، في سِلْمِهِ وَحَرْبِهِ، كان النبي عليه أفضل الصلاة والسلام، مثلا أعلى للمنهجِ القرآنيّ الذي صاغَ منه أسلوبًا رائعًا للحياة. وتنزيلُ الآياتِ على الواقعِ يحتاجُ إلى جانبِ معرفةِ أصولِ التفسيرِ وقواعِدِهِ: الدرايةُ بالواقعِ المعاصِرِ ومتابعَةِ أحداثِهِ ومعايشَةِ هُمُومِهِ، وهكذا ينبغي على المفسِّر أن يُولِيَ اهتمامَهُ للقضايا الحيويَّة والنقاطِ الساخنة في واقعِ أمتنا، وأن يُعنَى الباحثون في التفسير الموضوعي بما يُلامِسُ واقعنا.

المطلب الثاني: العدّة المعرفية لتفسير النصّ القرآني:

أجاد وأفاد علماء التفسير في هذا الباب وتناولوا المسألة تحت مسمّيات عِدّة من قبيل (ضوابط التفسير)، (استمداد علم التفسير)، (العلوم التي يحتاجها المفسّر)، وغيرها، وفي ملاحظة تقويمية حول كلّ تلك التحديدات نجد:

– أنّ بعضهم أغرق في سرد العلوم التي حدّدها كعلوم ضروريٌّ الإلمامُ بها لكلّ مَن تصدّى لعملية التفسير، واقتصر في ذلك على العلوم الشرعية فقط[20]، ولم يُشِر البتة إلى كون المفسّر ينبغي أن يكون مطلعًا على باقي علوم العصر وأحداثه السياسية والفكرية...

فكان لزامًا على مَن أراد الخوض في هذا المضمار أن يتوسّل بتلك المعارف والعلوم، والتي نحصرها حسب أهميتها في الآتي:

- **الإحاطة بعلوم العربية:**

أما اللغة العربية فلأن النص القرآني هو نص لغوي، وأن الله عز وجل خاطب العرب بلسانهم وعلى معهودهم في التخاطب والكلام. وأن علماء العربية وهم يقعدون قواعد النحو والإعراب كان في حسبانهم تحدي فهم الخطاب الشرعي خاصة مع ظهور اللحن الصوتي والصرفي وأيضا المفهومي في ظل اتساع الرقعة الإسلامية ودخول أمم

أعجمية في الإسلام. وقل نفس الأمر في نشوء علم البلاغة إذ كان تحدي الإعجاز القرآني حاضرا في أذهانهم. فتحدي الفهم والبيان عن معاني وأسرار القرآن الكريم كان حاضرا منذ زمن التأسيس والتقعيد اللغوي.

وإن النص –أي نص– هو بناء لغوي قائم على قواعد اللغة ونظامها، مما يعطي للتحليل اللغوي أهميته في الكشف عن المعنى.... لهذا فقد عد العلماء علوم اللغة أول العلوم التي يحتاج إليها مفسر القرآن.. بل جزم الكافيجي بأن قواعد التفسير ''مكتسبة من تتبع لغة العرب(8) ''

- **الاستفادة من المعارف الحديثة (العلوم التجريبية والطبيعية):**

قال بدر الدين الزركشي: "كل مَنْ كان حظه في العلوم أوفر كان نصيبه من علم القرآن أكثر"[29]

وقد ذهب الكثير من المحققين والباحثين في الشأن القرآني إلى اعتبار العلوم التجريبية من العلوم الضرورية التي يحتاجها المفسّر في عملية التفسير.

فكلما كان حظّ البشرية من العلم والمعرفة أوفر كان فهمها لحقائق الوجود ومفاهيم الوحي أفضل... وقد أمكن لنا اليوم بالاستعانة من الحقائق والمعطيات العلمية الثابتة أن نحلّ الكثير من المعضلات، ورفع الكثير من موارد الغموض في آيات القرآن الكريم، التي لم يكن باستطاعتنا أن نفهمها حتّ الأمس القريب وشرط الاستفادة من هذه العلوم هو أن يتمّ توظيفها بدقّةٍ، وأن يتمّ الاقتصار فيها على المعطيات الثابتة على نحو القطع واليقين. وأن يكون المفاد الإجمالي للآيات واضحاً حتّى قبل الاستعانة بالعلوم التجريبية، وإنما تأتي هذه الاستعانة من أجل فهم المصداق والمراد التفصيلي لهذه الآيات، وبيان ذلك المفاد على نحوٍ معقول، حيث يكون للاطلاع على تلك العلوم دوراً ملحوظاً في هذا الشأن.

والحقيقة لا نستطيع منع العلماء من توظيف المعطيات العلمية. التي يتوصّلون إليها، والتي يقطعون بصحتها . في فهم آيات القرآن الكريم، بمعنى أن الاستفادة من هذه العلوم بالنسبة إلى أصحابها أمرٌ قهري. وأما الآخرون فإنما يمكنهم الاستفادة من هذه الآراء والنظريات بشرط أن تكون أوّلاً :بالغة حدّ الكمال، وثانياً :أن يتمّ طرحها في التفسير على نحو الاحتمال، لا أن يتم طرحها على نحو القطع واليقين، والقول بأن هذا هو المعنى الذي تريده الآية بضرسٍ قاطع".

الخاتمة:

خاصية التطور مبدأ في خلق الإنسان وسنة لازمة في حياته على مر العصور، بحسب ما استجد في واقعه من القضايا الجديدة، والحاجة إلى توجيه العزائم للوصول إلى أغوار الألفاظ وأرواح المعاني في كتاب الله عز وجل ليكون نبراسا يضاء به ومفتاحا لما أغلق من أبواب الحلول للمشكلات المعاصرة، واستجابة لمقتضيات العصر ومتطلباته عبر توثيق الصلة بمقاصد القرآن وأهدافه وتوثيق الصلة بمصادر التفسير الأصيلة، وينابيعه الصافية، ومناهله العذبة.

التوصيات:

- رفع التجديد وفق منهج وأصول منضبطة ومعالم واضحة وثابتة، مواكبة لروح العصر وتطوره، فالتجديد سنة كونية وطبيعة بشرية
- تنقية علم التفسير مما علِقَ به من شوائب، وما خالطه من كدر عبر مسيرته الطويلة ومراحله العديدة، وتوجيهه إلى فهم المعنى دون الإغراق والإيغال فيما لا صلة له بالتفسير، والبعد عن التعصب المذهبي، وتحقيق القول في مسائل الخلاف، وتحرير المصطلحات الفقهية وتأصيلها، واستنباط الأحكام وتقريرها.
- معايشة المفسر لكتاب الله تعالى، ومتابعته لواقع الأمة، وتجريد القلم لتبليغ رسالة الله تعالى بأسلوبٍ واضحٍ يسيرٍ، يخالطُ القلوبَ ويخاطبُ العقولَ ويسري إلى الوجدان، ويلامسُ الواقعُ.
- توجيه التفسير لمعالجة قضايانا وحلِّ أزماتنا، مع السعي الدائم للابتكار في العرض والكتابة.
- إبراز الوحدة الموضوعية للقرآن الكريم، والبناء المحكم والنسيج الفريد للسورة القرآنية، فضلاً عن الدراسة الموضوعية للمفردة القرآنية؛ لبيان دقَّة التعبير القرآني، وبيان الهداية القرآنية، وضبط وتحرير المصطلحات، وحسم الكثير من مسائل الخلاف بين العلماء.

الهوامش:

1 – ابن منظور، لسان العرب بيروت، ط2، 1417هـ – 1997م، الفيروز آبادي، القاموس المحيط، باب الدال فصل الجيم. مؤسسة الرسالة، بيروت، ط 2، 1407 هـ 1987م، ص 246، مادة (جدد).

2 – البوصيري، البردة، مكتبة الأزهر، ط 1، 1984م، ص 8.

3 – محمد عمارة تجديد الدنيا بتجديد الدين، مكتبة نهضة، ط 2، 1998م، ص 12.

4 - أبو العباس محمد المبرد، الكامل، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، ط 3 ،1997م، ص 138/2.
5 - محمد عبد الرؤوف المناوي، فيض القدير شرح الجامع الصغير، تحقيق: أحمد عبد السلام، دار الكتب العلمية، 2001م، مقدمة الشارح.
6 - أبي الطيب محمد شمس الحق العظيم ابادي، عون المعبود في شرح سنن أبي داود، دار الكتب العلمية، بيروت ،260/6
7 - أبو الأعلى المودودي، موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه وواقع المسلمين وسبيل النهوض بهم، دار الصحوة للنشر، القاهرة، ط 1، 1986، ص 39.
8 - وحيد الدين خان، تجديد علوم الدين ترجمة: ظفر الدين خان، دار الفكر، ط 3، 1986 م، ص16.
9 - أمين الخولي، المجددون في الإسلام مكتبة الأسرة ،2001 م، ص 17-19 بتصرف.
10 - محمد عبد الرؤووف المناوي، فيض القدير مرجع سابق، 10/1.
11 - أبو أعلى المودودي، موجز تاريخ الدين وإحيائه، مرجع سابق، ص 52.
12 - حسن الترابي، تجديد الفكر الإسلامي، دار القرافي للنشر والتوزيع، المغرب ،1993م، ص 154-155.
13 - أحمد الشرباصي، الغزالي، دار الجيل للطبع والنشر والتوزيع، ص 173.
14 -محمد الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل ابراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ط 1، 1957م، ج 2، ص 46.
15 -ابن جزي الكلبي مقدمة التسهيل لعلوم التنزيل، ظبطه: محمد سالم هاشم، دار الكتب العلمية، ط 1، 1995م، ج 1، ص 9.
16 -أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، دار الفكر، 2010م، ج 1، ص 26.
17 -محمد عبد العظيم الزرقاني، مناهل العرفان، تحقيق: فواز أحمد زمرلي، دار الكتاب العربي بيروت، ط 1، 1995م، ج2، ص 3.
18 -محمد حسين الذهبي، التفسير والمفسرون، مكتبة وهبة ،200م، ج 2، ص 495.
19 - يعد محمد عبده (1849-1905) من أوائل المفكرين الذين دعوا إلى التحرر من أسر قولبة فهم "النص القرآني" حسب تفاسير الأقدمين ومنهجهم في النظر إلى "القرآن" لاختلاف العصر وتغير الحاجات والمستجدات والأزمات التى تعاني منها الأمة وأبرزها "الجمود على الموجود" وحدد معنى التفسير بأنه "فهم للكتاب من حيث هو دين يرشد الناس إلى ما فيه سعادتهم في حياتهم الدنيا والآخرة فإن هذا هو المقصد الأعلى منه وأشار إلى أن الله تعالى لا يسألنا يوم القيامة عن أقوال الناس وما فهموه وإنما يسألنا عن كتابه الذى أنزله لإرشادنا وهدايتنا".
20 -سيد قطب، في ظلال القرآن، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، ط 7، 1971م، ص 7.
21 -المرجع نفسه.
22 -محمد الزركشي، البرهان في أحكام القرآن، مرجع سابق، ج 1، ص 15.
23- محمد لطفي الصباغ، بحوث في أصول التفسير، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر ،1988م، ص244.
24- سيد قطب، معالم في الطريق، الشروق، القاهرة، ص15 تحت عنوان جيل قرآني فريد.

25-أبو الأعلى المودودي، مبادئ أساسية في فهم القرآن، ترجمة: خليل حامدي الكويت، دار القلم، ط 3، 1391هـ، ص49، 51.

26-محمد الطاهر ابن عاشور، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، 2008م، المقدمة، ج1، ص19، 20.

27-سيد قطب، معالم في الطريق، مرجع سابق، ص15.

28- سعيد بن محمد ديب حوى، مقدمة الأساس في التفسير، دار السلام، القاهرة، ط 1، 1985م، المجلد الأول، ص 13.

29 -محمد الزركشي، البرهان، في علوم القرآن تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار التراث، 2008م، 260/2.